دلالة تنوّع جموع التكسير في القرآن الكريم

المدرس المساعد
عبد الكريم خالد التميمي
جامعة البصرة – كلية القانون

المقدمّة :–

يذكر الصرفيون وأصحاب اللغة أنّ لجمع التكسير أوزاناً كثيرة جاوزت الثلاثين ، وقد يكون للمفرد الواحد عدّة جموع وبصيغ مختلفة ، نحو : بارّ وأبرار وبررة ، وشاهد وأشهاد وشهود وشهداء، وأسير وأسرى وأُسارى ، وكثير غيرها ، فهذه ظاهرة تسترعي الانتباه والوقوف والتأمّل .

وقد استعمل القرآن الكريم هذا التنوّع في الجموع في مواضع مختلفة من آياته . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل دلالة أبرار – مثلا – تختلف عن دلالة بررة في الاستعمال القرآني ؟ وهل لهذه الجموع معانٍ خاصّة ما جعلها تستعمل في آية ما دون غيرها ؟(١).

الجواب هنا أنّ القرآن الكريم معجز ، واستعمال الألفاظ في مواضعها باب من إعجازه ، ولا شكَّ أنّ لهذا التنوع في استعمال الجموع دلالته ومناسبته ومعناه ، وما سيتعرّض إليه البحث من أمور فيه بيان ذلك .

وقد ذُكرت أسباب للاستعمال العربي لهذا التنوّع ، فمن تلك الأسباب ، اختلاف اللهجات ، واختلاف المعنى ، والضرورة ، ومناسبة الفواصل ، وكذلك نظرية القلّة والكثرة ، وغيرها من الأسباب.

والذي تقتضيه دراسة هذا البحث هو الكشف عن دلالة ذلك الاستعمال المتنوّع والمعاني المترتبة عليه ، والوقوف على الأسباب التي دعت إلى ذلك ، ليس على سبيل الإحصاء ، بل على سبيل الانتقاء والتحليل .

الاستعمالات القرآنية :

يستعمل القرآن الكريم جموع التكسير بصور متنوعة ، ومن هــذا التنــوع استعماله لــ(الأبرار والبَرَرَة)، وهما جمعان لــ (بارّ) ، واستعمال القــرآن الكــريم لهذين الجمعين في مواطن مختلفة له دلالته الخاصّة بالجمع نفسه ، ولــه دلالتــه فــي الاستعمال ، فمن دلالة الجمع أنّ (البارّ) إذا أُريد به صفة للآدميين جُمع على (أبرار) ، وإذا أُريد به صفة للملائكة جُمِع على (بَرَرَة)(٢) . وهذا ما لــوحظ فــي اســتعمال القرآن الكريم لكلا الجمعين ، فجاء بــ(البررة) مرة واحدة في قوله تعالى : " بأيــدي سَفَرة كِرامٍ بَرَرَة " عبس/١٦ ، وفي هذا وصف للملائكة(٣).

أمّا (الأبرار) فقد وردت ست مرات في آي الذكر الحكيم وهــو وصــف للآدميين ، نحو قوله تعالى : " وتوقنا مع الأبرار " آل عمران / ١٩٣ ، وقوله تعالى : " ... وما عند الله خيرٌ للأبرار " أل عمران/١٩٨ ، وقوله تعالى : " إنَّ الأبرارَ لفي نعيمٍ ... " الانفطار/ ١٣ ، وقوله تعالى : " إنّ الأبرارَ يشربون من كأسٍ كان مِزاجُها كافورا " الدهر/٥ ، وقوله تعالى : " كلاّ إنَّ الأبرار لفي عِلّيين " المطففين /١٨ ، وقوله تعالى : " إنّ الأبرار لفي نعيم : المطففين/٢٢ ، وقال أبو جعفر النحّاس إشارة إلى ذلــك ((إنَّ الأبرار لكثرة ما يأتون من الصدق))(٤) ، ولا شكّ أنّه بهذا المعنــى لا يكــون صــفة للملائكة .

ومن دلالة (الأبرار) أيضا أنّها استعملت للقلّة النسبية ، فقد ذكر الــدكتور فاضل السامرائي : ((أنّ الأبرار في المواطن الستة التي وردت في القرآن جاءت للدلالة على قلّة نسبيّة لا حقيقية ، فالأبرار لا شكَّ يزيدون على العشرة ، لأنّ المقــصود بهــم المؤمنون ، فهم إذا قيسوا بالفجّار كانوا قلة ، فجيء بالفجّار على جمع الكثرة ، والأبرار على جمع القلّة))(٥).

ومن دلالة الاستعمال ما وجدناه من الانسجام الصوتي والموســيقي الــذي تحدثه كلٌّ من (الأبرار والبررة) في موقعيهما ، ومن ذلك قوله تعالى : " ... وتوقنا مع الأبرار " آل عمران/١٩٣ انســـجاماً مع نهاية الآيتين الســـــابقتين في قوله تعالى : " ... عذاب النار " آل عمران/١٩١ ، وقوله " ... ومن أنصار " آل عمران/ ١٩٢ ، كما جاء هذا الانسجام في قوله تعالى : " إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفُجّــار لفــي جحــيم "

الانفطار / ١٣-١٤ ، فلو وازنّا بين أصوات الآيتين السابقتين لوجدناها متساوية ومنسجمة النغمة ، مع أنّ الأبرار جمع قلّة والفجّار جمع كثرة .

أمّا البررة ، فجاءت في قوله تعالى : " كرامٍ بررة " عبس/١٦ ، وإنّ قارئ سورة عبس التي جاءت بها بررة ـــ يلمسُ انسجاما صوتيّا وجانبا موسيقيا ، فضلاً عن الجمل القصيرة التي سبقت الآية السابقة أو لحقتها ، فقد استعمل القرآن صيغة (فَعَلَة) جمعا في الآية التي سبقتها في قوله تعالى : " مرفوعة مطهّرة ، بأيدي سفرة ، كرامٍ بررة ، قُتِلَ الإنسان ما أكفره... "عبس/١٦-١٧ ، وتوالت هذه النغمة إلى نهاية السورة ، حتى أنّه جاء في آخرها جمعان على وزن (فَعَلَة) وهذا في قوله تعالى : " ... أولئكَ هم الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ " عبس/ ٤٢ .

وعليه فلو استعمل (الأبرار) بدلاً عن (البررة) أو العكس ، لفُقِدَ هذا التوازن والانسجام ، وهو جانب من إعجازه .

ومما خصّه القرآن الكريم من الجموع في مثل هذا التنوّع استعماله لـ (الأسرى والأسَارى) جمع (أسير) ، وقد جاءت (أسرى) في الذكر الحكيم مرتين في قوله تعالى : " ما كانَ لِنَبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أسرى حتَّى يُثْخَنَ في الأرضِ " الأنفال/٦٧ ، وقوله تعالى : " يا أيُّها النبيُّ قُلْ لِمَنْ في أيديكم من الأسرى " الأنفال/٧٠ ، أمّا (الأسارى) فجاءت مرة واحدة في قوله تعالى : " وإنْ يأتوكم أُسارى تُفادوهم وهو مُحَرَّمٌ عليكم " البقرة/٨٥ . والمتأمّلُ لاستعمال القرآن الكريم لهذين الجمعين لا يجدُ فرقاً أو اختلافاً في دلالة كلٍّ منهما على الأسر ، حتّى إنّهم قرأوا الأسرى أسارى والعكس ، كما ورد أنَّ الأسرى والأسارى لغتان في الأسر(٦) ، ولكنّ أبا عمرو بن العلاء لاحظ فرقاً لطيفاً في المعنى حيث قال : " الأسرى هم الذين استأسروا أي سلّموا أنفسهم ، وهم غير الموثوقين عندما يؤخَذون ، والأسارى هم الذين يكونون في الوثاق والسجن "(٧).

وتكون الأسارى لغة في الأسر ؛ لأنَّ (فَعْلى) يطّردُ في كلِّ ما دلَّ على هلاك أو توجّع أو تشتيت ، وأنّه اتصف بهذا المعنى وأصبح دلالة عليه، إلاّ أنّ (فَعالى) أخذ هذا المعنى من (فَعْلى) واستحكم عليه(٨) ، فأصبحت دلالة الصيغتين في هذا المعنى .

واستعمل القرآن الكريم أيضا جمعي (الإخوة والإخوان) ، وهما جمعان لـــ (أخ) على وزن (فَعَل) ، وكان هذا الاستعمال في مواضع كثيرة ، وقد ذكر إنّ الأخ في الدين يُجمع على (إخوان) ، والأخ من الأب والأم ، أي في النســـب يجمع على (إخوة)(٩) . واستعمل القرآن الكريم (إخوة) للدلالة على المعنى المذكور في نحـــو قوله تعالى : " وجاءَ إخْوةُ يوسفَ " يوسف/ ٥٨ ، وقوله تعالى : " فإنْ كانَ لهُ إخـــوةٌ " النساء/ ١١ ، وقوله تعالى : " لقد كان في يوسف وإخوتِهِ " يوسف/ ٧ ، وجاء خلافاً لهذا في نحو قوله تعالى : " إنّما المؤمنون إخـــوةٌ " الحجـــرات/ ١٠ ، ووجـــد الـــدكتور السامرائي تخريجاً لهذه الآية ، من أنَّ المؤمنين بمنزلة الإخوة في النسب (١٠) ، وقيـــل إنّ الإخوة في الآية السابقة إشارة إلى أنّ ما بينهم هو ما بـــين الإخـــوة مـــن النـــسب ، والإسلام كالأب (١١).

أمّا استعمال (الإخوان) فجاءت تحمل المعنيين ، منهـــا مـــا هـــو بمعنـــى الأصدقاء ، نحو قوله تعالى : " وعادٌ وفِرْعَونُ وإخوانُ لُوطٍ " ق/١٣ ، وقولـــه : " إنَّ المُبَذّرينَ كانوا إخوانَ الشياطين " الإسراء/٢٧ ، ومنها ما هو بمعنى النـــسب ، كقولـــه تعالى : " ولا يُبدينَ زينَتَهُنَّ إلاَّ لبُعولتِهُنَّ أو إخوانهنَّ أو بنـــي إخـــوانِهُنَّ " النـــور/٣١ ، وكقوله : "ولا جُناحَ عليهنّ في آبائِهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناءِ إخوانهنَّ " الأحـــزاب/٥٥ ، وذُكر إنَّ السبب في مجيء الإخوان في القرآن بمعنى النسب هو أنَّ الخطاب فيه لعمـــوم المؤمنين وليس لواحد منهم فاقتضى المقام الكثرة ، فجاء بصيغة إخوان الدالة على الكثرة بدل إخوة التي هي للقلة(١٢) .

ويتّضح لنا مما سبق اختلاف دلالة كل من الإخوة والإخوان في الاســـتعمال القرآني ، ولأبي حيّان النحوي رأيٌ آخر إذ يقول : " والصحيح أنّهما يقالان في النـــسب وفي الدين "(١٣) . والحقيقة أنّ هذا الاختلاف اللطيف في المعنى لا يُعتمدُ في الاستعمال اللغويّ .

وعلى النحو الســـــابق جاء استعمال القرآن الكريم لـــ (عِباد وعبيد) جمع (عَبْد) في مواضع كثيرة ، وقد بيّن اللغويون والدارسون – قدامى ومحدثين – دلالة كلّ من الجمعين ، فجاء في البحر المحيط أنَّ ابن عطيّة قال : " إنَّ العِبـــاد تـــأتي جمعـــاً لـــ(عَبْد) متى ما سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن

بها معنى التحقير وتصغير الشأن ... أمّا العبيد فيستعمل في التحقير "(١٤) ، وأشار ابن جنّي إلى " أنّ أكثر اللغة تستعمل العبيد للناس والعباد لله "(١٥) .

وقد وردت لفظة (العباد) في القرآن الكريم سبعاً وتسعين مرّة ، و (العبيد) خمس مرات ،فالعباد في كل هذه المواضع تعني الطائعين لله عزَّ وجلَّ ، المخلصين له ، ومن ذلك قوله تعالى : " واللهُ رؤوفٌ بالعبادِ " البقرة/٢٠٧ ، وقوله تعالى : " والله بصيرٌ بالعباد " آل عمران / ١٥ ، وقوله تعالى : " قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربَّكم " الزمر/١٠ ، أمّا العبيد فحيثما وردت دلّت على أنّهم عُصاة لله جلَّ جلاله ، يستحقون عذابه ونقمته ، وجدير بالذكر أنّ ثلاث آيات منها مسبوقة بقوله تعالى : " ذوقوا عذاب الحريق "(١٦) . ومن ذلك قوله تعالى : " ذلك بما قدَّمتْ أيديكم وأنَّ اللهَ ليس بظلامٍ للعبيدِ " آل عمران/ ١٨٢ ، وقوله تعالى : " ومن أساءَ فعليها وما ربُّك بظلامٍ للعبيدِ " الحج/١٠ .

وجعل ابو حيّان مدلول (عباد) مشابهاً لمدلول (عبيد) وعللَ ذلك بقوله : " إنّ عباد وعبيد سواء وإنّما كثُرَ استعمال عباد دون عبيد ؛ لأنّ (فِعالا) في جمع (فَعْل) غير اليائي العين قياسي مطّرد ، وجمع (فَعْل) على (فعيل) لا يُطّرد ... " (١٧)

كما علل أبو حيّان مجيء عبيد في القرآن الكريم بقوله : " وجاء (عبيد) في القرآن لتواخي الفواصل ، ألا ترى في قوله تعالى : " وما ربّك بظلام للعبيد " فُصّلت/٤٦ ، وجاء قبلها قوله تعالى : " أولئكَ يُنادَون من مكانٍ بعيد " فُصّلت/٤٤ ، وجاء بعدها قوله تعالى: " قالوا آذنّاك ما منا من شهيد " فُصّلت/٤٧ ، فَحَسُن مجيئه بلفظ العبيد مواخاة هاتين الفاصلتين ، ونظير ذلك قوله تعالى : " وما أنا بظلامٍ للعبيد " ق/٢٩ ، فقد جاء قبلها قوله تعالى : " لا تختصموا لديَّ وقد قدّمت إليكم بالوعيد " ق/٢٨ ، وجاء بعدها قوله تعالى : " يومَ نقولُ لجَهنَّمَ هل امتلأتِ وتقولُ هل من مزيد " ق/٣٠ "(١٨).

ولعلّ كلام أبي حيّان في مواخاة الفواصل فيه كثير من الصواب ؛ لأنّ لفظة (عبيد) في سورة (ق) وسورة فُصّلت وسورة الحج ، سُبِقَت وثُليت بفواصل على زنة (عبيد) ، حتّى أنّ سورة (ق) بدأت بقوله تعالى : " ق والقرآن المجيد " ق/١ .

ومما سبق يمكن القول إنّ دلالة (عباد) في الاستعمال القرآني اختلفت عن دلالة (عبيد) ، وإن كان الاستعمال اللغوي والتعبيري لـ(عباد) لا يقتصر على المعنى المذكور ، وربّما هو مصطلح قرآني اعتمد هذا المعنى .

ومن تنوع الجموع أيضا في الاستعمال القرآني مجيء (الحمير والحُمُر) جمعا لحمار ، ولا شكّ أنّ لمجيئها معانٍ ودلالات خاصّة ، فجاءت لفظة (الحمير) في القرآن الكريم مرتين في نحو قوله تعالى : " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " النحل/٨ ، وقوله تعالى : " إنَّ أنكرَ الأصوات لصوت الحمير " لقمان/١٩ .

أمّا (الحُمُر) فجاءت مرّة واحدة في قوله تعالى : " كأنّهم حُمُر مستنفرة فَرَّتْ من قسورة " المدّثر/٥٠-٥١ ، فمن دلالة لفظة (الحمير) في القرآن الكريم أنّها أهلية مألوفة ، ودلالة لفظة (الحُمُر)أنّها وحشيّة(١٩) . وجاء في صحيح البُخاري أنّه شبّههم بالوحوش لمناسبة الجهل وعدم الفطنة بل هم أضلُّ(٢٠).

ونُضيف أيضاً أنّ لفظة (الحمير) في قوله تعالى : " إنّ أنكر الأصواتِ لصوتِ الحمير " جاءت لتواخي فواصل السورة ، وانسجامها الصوتي والموسيقي ؛ لأنّ لفظة (الحمير) سُبقت وُلحِقت بفواصل من زنتها ، نحو : خبير ، فخور ، أمور ، مصير ، سعير ، صدور ، كبير ، ...

واستعمل القرآن الكريم (الكُفّار والكَفَرَة) جمع كافر ، وقد اختلفت دلالة الجمعين باختلاف صيغتيهما ، فقيل إنّ الكفّار في جمع كافر وهو غير المؤمن ، أو المُضاد للإيمان أكثر استعمالاً من الكَفَرَة ، والكفرة في جمع كافر الجاحد النعمة أكثر استعمالاً(٢١) .

وجاءت لفظة (الكُفّار) في القرآن الكريم إحدى وعشرين مرّة(٢٢) ، وقد احتملت هذا المعنى ، ومنها قوله تعالى : " إنّ الذينَ كَفَروا وصَدّوا عن سبيلِ اللهِ وماتوا وهم كُفّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لهم " محمد/٣٤ ، وكذلك قوله تعالى : " يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تتولّوا قوماً غَضِبَ اللهُ عليهم قد يَئِسُوا من الآخرةِ كَمَا يَئِسَ الكُفّارُ من أصحابِ القبور " الممتحنة/١٣ ، وقوله تعالى : " فاليوم الذينَ آمنوا من الكُفّار يَضْحَكون " المطففين/٣٤ .

وجاءت لفظة (الكَفَرَة) مرّة واحدة في القرآن الكريم ، وهي تحمل المعنى المذكور، في قوله تعالى : " هُمْ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ " عبس/٤٢ .

وعلّق الدكتور السامرائي على هذا بقوله " إنّ دلالة (فُعّال) هي التكثير والمبالغة في القيام بالفعل ، فإنْ لم يكثروا من القيام بالفعل فلا يطلق عليهم هذا الجمع ، فليس كل مَن يزرع شجرةً – مثلاً – هو من الزُرّاع حتّى يكثر من ذلك ... ، فهو لتكثير القيام بالفعل لا لتكثير العدد ... ، أمّا (فَعَلَة) فليس فيه الحركة والتكثير اللذيّن في (فثعَّال) " (٢٣) .

ويُضيف قائلاً : " ومما يدلُّ على غياب الحدث والحركة من هذا الجمع ، أنّ هذا الجمع ورد في مواطن كثيرة في القرآن الكريم ليس فيها اسم واحد متعلقاً بمجرور أو ظرف أو عاملاً أيَّ عملٍ " (٢٤) .

والذي يطالعنا – هنا – في استخدام القرآن الكريم للفظة (الكفرة) في سورة عبس أنّها جاءت منسجمة مع نسق السورة في فواصلها ، فقال تعالى :" وجُوهٌ يومئذٍ مسفرةٌ ، ضاحكة مستبشرةٌ ، ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَة ، ترهقُها قَتَرَة ، أولئكَ هم الكَفرَة الفَجَرَة " عبس/٣٨-٤٢ ، فضلاً عن ذلك فإنّ هذا التشابه في الفواصل قد لَزِمَ السورة منذُ بدئها ، ولو أنّه استعملَ الكُفّار بدلاً عن الكفرة لاختلفَ هذا التواصل النغمي المعجز .

ومن ذلك أيضاً استعمال القرآن الكريم (السُّجّد والسُّجُود) جمع ساجد ، وجاء استعمال القرآن لـ(السُّجّد) في إحدى عشرة مرّة ، منها قوله تعالى : " ورفعَ أبويه على العرش وخرّوا له سُجّدا " يوسف/١٠٠ ،وقوله تعالى " إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّا " مريم/٥٨ ، وقوله تعالى :" تراهم رُكّعاً سُجَّدا " الفتح/٢٩ .

أمّا (السجود) فقد جاءت مرتين في قوله تعالى : " وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طَهِّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكّعِ السُجودِ " البقرة / ١٢٥ ، وكذلك قوله تعالى : " وطَهّر بيتي للطائفين والقائمين والرّكّعِ السُجودِ " الحج/ ٢٦ .

والجدير بالذكر إنّ صيغة (فُعّل) تدلّ على الحركة الظاهرة ، كما أنّ فيها الدلالة على تكثير القيام بالفعل (٢٥) .

وقد أوضح السهيلي الفرق بين (السُجّد والسجود) في الاستعمال القرآني بقوله : " فَلِمَ قال السجود على وزن (فُعُول) ، ولم يقل (السُّجّد) كما قال (الرُّكّع) ، مع أنّه قال في سورة الفتح (رُكّعاً سُجّدا) ؟ وما الحكمة في جمع ساجد على سجود ،

ولم يجمع راكع على ركوع ؟ فالجواب : انّ السجود عبارة عن الفعل ، وهو في معنى الخشوع والخضوع ، وهو يتناول السجود الظاهر والباطن ، ولو قال : السُّجّد جمع ساجد لم يتناول إلاّ المعنى الظاهر ، وكذلك الرُّكّع ، ألا تراه يقول : (تراهم رُكّعاً سُجّدا) يعني رؤية العين ، وهي لا تتعلّق بالظاهر " (٢٦) .

ومن الملاحظ أنّ السجّد حيثما ورد فإنّه يدلُّ على الحركة الظاهرة ، أمّا السجود فيدلُّ على السجود الحقيقي وهو الخشوع ، وهو مناسب للتطهير في الآيتين ، فإنّ الخشوع يدلّ على طهارة الباطن ، وهو مناسب لطهارة البيت (٢٧) .

ومن استعمال القرآن الكريم لأوزان جموع التكسير للمغايرة بين معنيين ، استعماله لـ (الأعْيُن والعُيُون) جمع (عَيْن) ، فقد جاءت العيون في القرآن عشر مرّات(٢٨)، وكلها تعني عُيُون الماء ، ومن ذلك قوله تعالى : " إنّ المتّقين في جنّاتٍ وعُيُون " الحجر/٤٥ ، وقوله : " كم تركوا من جَنّاتٍ وعُيُون " الدُخان/٢٥ ، وقوله : " إنّ المتّقين في ظلالٍ وعُيُون " المرسلات/٤١ ، أمّا الأعين فحيثما وردت كانت تعني الباصرة ، ومنها قوله تعالى : " أمْ لهُم أيدٍ يبطشونَ بها أمْ لَهُم أعْيُنٌ يُبصرون بها " الأعراف/١٩٥ ، وقوله : " ترى أعيُنَهم تَفيضُ من الدمع " المائدة/٨٣ ، وقوله : " وذلك أدنى أن تَقَرَّ أعيُنُهم ولا يَحزَنَّ " الأحزاب/ ٥١ .

الملاحظ هنا أنّ الأعين متى ما أُضيفت إلى (نا) المتكلّم ، وهو ذات الله جلَّ ثناؤه ، كانت تعني الرعاية ، أي رعاية الله للبشر (٢٩) ، ومن ذلك قوله تعالى : " واصنع الفُلْكَ بأعيُننا ووحينا) هود/٣٧ ، وقوله : " فأوحينا إليه أن اصنع الفُلْكَ بأعيننا " المؤمنون/٢٧ ، وقوله : " واصبر لحُكمِ ربِّك فإنّكّ بأعيننا " الطور/٤٨ ، وكذلك قوله : " تَجْري بأعيننا جزاء لمَن كان كفر ... " القمر/١٤ .

والملاحظ أيضاً أنّ لفظة العُيُون هو مصطلحٌ قرآني اختصّ بعيون الماء دون الباصرة ، أمّا الاستعمال اللغوي أو المعجمي فشمل المعنيين .

ومن اختلاف المعنى في الاستعمال القرآني بين جمعين ، هو استعمال (الأشياع والشّيَع) جمع شيْعَة ، فجاءت أشياع في موضعين ، الأول في قوله تعالى : " ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر " القمر/٥١ ، والثاني في قوله تعالى : " وحُيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعِلَ بأشياعِكم من قبل " سبأ/٥٤ ، ومعنى الأشياع في كلا

الموضعين : الأشباه في الكفر(٣٠). أمّا الشّيع فجاءت في خمسة مواضع، وكانت تعني : الفِرق(٣١)، نحو قوله تعالى : " ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَعِ الأولين " الحجر/١٠ ، وقوله : " إنّ فِرعونَ علاً في الأرضِ وجَعلَ أهلَها شِيعا " القصص/٤ ، وقوله : " من الذين فرّقوا دينَهم وكانوا شَيَعا " الروم/٣٢ ، وقوله : " أو يُلْبسَكم شِيَعا " الأنعام/٦٥ ، وقوله : " إنَّ الذينَ فَرّقوا دينَهم وكانوا شِيَعا " الأنعام/١٥٩ .

والحقيقة أنّ (أشياعاً) جمع قلّة ، ولكنّه استعمل للدلالة على القلّة النسبيّة ، إذا ما قورنَ بالشيع وهو جمع كثرة .

وعلى النحو السابق جاء استعمال القرآن الكريم لـ (الموتى والأموات) جمع (ميت) ، فلكل جمع معنى مختلف قد خصّه القرآن به ، فقيل إنّ (الموتى) حيثما وردت في القرآن ، إنّما تدلّ على مَن أصابهم الموت حقّاً، نحو قوله تعالى : " وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ أرني كيفَ تُحيي الموتى " البقرة / ٢٦٠ ، وقوله : " ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمَهم الموتى " الأنعام/١١١ . أمّا (الأموات) فدلّت على مَن ماتوا حقيقة وعلى غيرهم ، أي الموت المعنوي(٣٢) ، نحو قوله تعالى : " كيفَ تكفرون باللهِ وكُنتم أمواتاً فأحياكم " البقرة/ ٢٨ ، وقوله تعالى : " وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ " فاطر/٢٢ ، وقوله : " والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، أمواتٌ غيرُ أحياء وما يشعرون أيّانَ يُبعثون " النحل/٢٠-٢١ ، وقوله : " ولا تقولوا لِمَن يُقتَلُ في سبيلِ الله أموات بل هم أحياءٌ ولكن لا تشعرون " البقرة/١٥٤ .

ومن الجوانب الماديّة والمعنوية في الاستعمال القرآني، استعماله لـ(الضُعَفاء والضِعَاف) جمع (ضَعيف) ، فالضعفاء هم المستضعفون في الأتباع والعوام ، وهو من الضعف المعنوي ، أمّا الضِعاف فللضعف الماديّ(٣٣) ، ومن ذلك قوله تعالى : " فقال الضُعفاءُ للذينَ استكبروا إنّا كنَّا لكم تَبَعاً " إبراهيم/ ٢١ ، وجاءت الضُعفاء للدلالة على الضعف الماديّ في موضع واحد في القرآن الكريم ،في قوله تعالى: " ليسَ على الضُعَفاءِ ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما يُنْفِقون حَرَجٌ إذا نَصَحوا للهِ ورَسولهِ " التوبة/٩١ ، فالضعفاء في هذه الآية هم الشُيُوخ(٣٤).

أمّا قوله تعالى : " وليَخْشَ الذين لو تركوا من خلفِهم ذُريَّةً ضِعافاً ... " النساء/٩ ، وقوله تعالى : " أيَودُّ أحَدُكم أن تكون لهُ جَنَّةٌ من نَخيلٍ وأعنابٍ تجري من

تحتها الأنهارُ لهُ فيها من كلِّ الثمراتِ وأصابَهُ الكِبَرُ ولهُ ذُريَّةٌ ضُعفاءُ ، فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقتْ ... " البقرة /٢٦٦ ، فقد علّق الدكتور السامرائي عنهما بقوله :" إنَّ قوله ضِعافا تعني الضعف الماديّ ، أي محتاجين إلى المال فقراء ، أمّا الثانية فليس المقصود بها الضعف الماديّ بل الضعف المعنوي ، أي عدم القيام بالأمر ، بدليل أنّ أباهم له جنّة فيها من كلِّ الثمرات،وإنّما هم ضُعفاء إلى من يقوم بأمرهم ، فثمّة فرق بين الحالتين" (٣٥)

ومن ذلك أيضاً استعماله لـ (الأنفس والنفوس) ، فقد جاءت (النفوس) في القرآن الكريم مرتين ، في قوله تعالى : " إذا النفُوسُ زُوّجتْ " التكوير/٧ ، وفي قوله تعالى : " ربّكم أعلمُ بما في نُفُوسِكم " الإسراء/٢٥ ، أمّا (الأنفس) فجاءت في مئة وثلاث وخمسين مرّة(٣٦)، منها قوله تعالى : " ولَنَبلُوَكم بشيءٍ من الخوفِ والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمراتِ ... " البقرة / ١٥٥ .

وإذا ما تأملنا كلمة (النفوس) في الآيتين السابقتين ، نجدها تختصُّ بجانبٍ معنويّ خالٍ من الماديّة ، وكأنّكَ تتعامل مع الروح خالية من الجسد ، أمّا (الأنفس) فقد ارتبطت بالجانب الماديّ ، أي أننا نتعاملُ مع إنسان متكوّنٍ من روح وجسد مرتبطين بحدثٍ دنيوي .

ومن ذلك أيضا استعمال القرآن الكريم لـ (الأشدّاء والشِّداد) جمع شديد ، وقد جاءت (الأشدّاء) في القرآن الكريم للدلالة على الشدّة المعنوية ، و(الشّداد) للشدّة المادية(٣٧) ، ومنه قوله تعالى : " ... أشدّاء على الكُفّار رُحَماءَ بينهم " الفتح/٢٩ . فقوبل هنا بين الشدّة والرحمة ، وهما أمران معنويان ، ونحو قوله تعالى : " ... ملائكة غلاظٌ شِداد " التحريم/٦ ، أي أنّهم ملائكة ضخام الأجسام فيهم شدّة وغلظة(٣٨) ، وقوله تعالى : " ثُمَّ يأتي من بعد ذلك سبعٌ شِداد يأكُلنَّ ما قدّمتم لهنَّ " يوسف/٤٨ ، والشداد هنا: السنين المجدبة القاحطة ، وكذلك قوله تعالى : " وبنينا فوقَكُم سبعاً شِداداً " النبأ/ ١٢ ، أي السماوات المحكمة القويّة(٣٩) .

وكذا استعمل القرآن الكريم لـ(الذُّكُور والذُكران) جمع (ذكر) ، الاستعمال نفسه ، فجاءت (الذكور) في قوله تعالى " يَهَبُ لمن يشاءُ إناثاً ويَهَبُ لمن يشاءُ الذكور " الشورى/٤٩ ، وقوله : " وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا

ومُحَرّمٌ على أزواجنا " الأنعام/ ١٣٩ ، وجاءت (الذُكران) في قوله تعالى : " أتــأتون الذُكران من العالمين " الشعراء/١٦٥ ، وقوله تعالى : " أو يُزَوّجَهم ذُكراناً وإناثاً ويجعلُ مَن يشاءُ عقيما " الشورى/٥٠ .

ولعلنا نجد تخصيصاً في استعمال القرآن للذُكران ، أمّـا الـذكور فـالعموم واضحٌ فيها ، وقد أريدَ بالذكران الدلالة على القلّة النسبيّة مقارنة بالـذكور(٤٠) . وورد أنّ معنى قوله تعالى : " ويُزوّجهم ذُكراناً وإناثاً " ، هو أنْ يكون للمرأة مرّة ذكراً ومـرّة أنثى(٤١) ،وورد في تفسير القرطبي أنّ مجاهد قال : " هو أن تلد المراة غلاما ثمّ تلـد جارية ثمّ تلد غلاما ثمّ تلد جارية . وقال محمد بن الحنفية : هو أن تلد تَوأمـاً ، غلامـا وجارية . وقال القتبي : التزويج هاهنا هو الجمع بين البنين والبنات ؛ تقـول العـرب : زوّجتُ إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغار "(42) ، فإنّ المرأة إذا ولدت ذكوراً ف قط كان عدد الذكور أكثر في العادة من أن تلد ذكرانا وإناثاً(٤٣) .

ومن ذلك أيضاً استعمال القرآن الكريم لــ (العُمْي والعُميان) ، وقيـل إنّ العميان استعملت للدلالة على القلّة النسبية ، واستعملت العُمْي للكثرة (٤٤) ، كما في قوله تعالى : " والذينَ إذا ذُكّروا بآيات ربّهم لم يَخـرّوا عليهـا صُـمّاً وعُميلنـا " الفرقان / ٧٣ .

الوصف في الآية السابقة بكلمة (العُميان) جاء في عباد الـرحمن ، أمّـا الوصف بكلمة (العُمي) في قوله تعالى : " صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهُم لا يرجعـون " البقـرة / ١٨ ، وقوله تعالى : " أفَأنتَ تُسمِعُ الصُمَّ أو تهدي العُمي ومن كان في ضـلالٍ مبـين " الزخرف/٤٠ ، وكذلك قوله : " ونُحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُمّاً " الإسراء/٩٧ ـــ فجاء وصفاً للكافرين ، والقلّة النسبيّة في هذا هو أنّ عباد الرحمن أقلُّ من الكافرين .

وأشار السامرائي هنا إلى انّ " العمي جمع أعمى ، ولكن العُميان اسم لهؤلاء الصنف من الناس الفاقدي البصر ، فتقول : أقبل العميان ، كما تقـول : أقبـل القـضاة والباعة والصاغة " (٤٥).

ولربّما يكون معنى العُمي في الاستعمال القرآني هو عمى البصيرة ، وليست الباصرة ، فجاءت العُمي في مواطن سبعة (٤٦) في القرآن الكريم وكُلّها موجّهة لأهـل

الكفر ، فهم يسمعون ويُبصرون بحواسّهم ويجحدون بقلبهم ، أمّا العُميان ، فربّما تعني الباصرة ، إذ إنّها جاءت في موطن واحد ذكرناه آنفاً ، وجاء في وصف عباد الرحمن ، فهم خرذوا على آيات الله سامعين مبصرين منتفعين(٤٧)، إذ لولا تذكيرهم عن طريق الحواس لما خرّوا عليها منتفعين .

ونخلص مما سبق إلى :-

١- أنّ اختلاف المعنى هو السبب الأساسي في استعمال القرآن الكريم لجمع دون آخر ، فاستعمال القرآن لهذا التنوع لم يكن على سبيل الترادف ،ولكن لاختلافٍ في المعنى ، فلكل كلمة معناها الدقيق ، ولا يمكن لكلمة أن تحُلّ محلّ الأخرى ، وإن كانت تحمل معناها العام .

٢- قد يحكم الانسجام الصوتي والنسق الموسيقي والتواصل النغمي وفواصل الآيات استعمال القرآن الكريم لهذا التنوّع .

٣- تلعب نظرية القلة والكثرة الافتراضيّة دوراً ملحوظاً في الاستعمال القرآني السابق .

هوامش البحث

(١) انظر دراسات في علم اللغة ، د . كمل بشر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩م ، ص/١٠٥ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ج٢ ، ص/٣٠٢ .

(٣) الكشّاف ، الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د.ت) ، ج٤ ، ص/٧٠٢ .

(٤) إعراب القرآن ، أبو جعفر النحّاس ، تحقيق: د. زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٨م- ١٩٨٠م ، ج٣ ، ص/ ٦٥٦ .

(٥) معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل السامرائي ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨١م ، ص/ ١٤٢- ١٤٣ .

(٦) حُجَّة القراءات ، أبو زَرَعة ، تحقيق: د. سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٧م ، ص/١٠٤ .

(٧) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، تحقيق : محمد جاد المولى بك وعلـــي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم ، بيـــروت ، المكتبـــة العـــصرية ، ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص/ ٢٠. وينظر الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ابـــن فـــارس، تحقيق : مصطفى الشويمي ، مؤسسة بـــدران للطباعـــة والنـــشر ، بيـــروت ، ١٩٦٣ ، ص/ ٣٠ .

(٨) انظر معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل السامرائي ، ص/ ١٩ .

(٩) البحر المحيط ، أبو حيّان النحوي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ج٣ ، ص/ ١٩ .

(١٠) معاني الأبنية في العربية ، ص/ ١٣٧ .

(١١) التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب) ، محمد بن عمر الرازي ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٨٩هـــ ، ج٧ ، ص/ ٥٩٨ .

(١٢) انظر معاني الأبنية في العربية ، ص/١٣٧ .

(١٣) البحر المحيط ، ج٣ ، ص/١٩ .

(١٤) البحر المحيط ، ج٢ ، ص/ ١٤ .

(١٥) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جنّـــي ، تحقيـــق : علي النجدي ناصف وعبد الفتّـــاح شـــلبي ، المجلـــس الأعلـــى للـــشؤون الإســـلامية ، القاهرة ، ص/ ١٤ .

(١٦) انظر التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ، د. عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار ، عمّان ، ١٩٨٥ ، ص/ ٤٤ .

(١٧) البحر المحيط ، ج٢ ، ص/ ٥٠٦ .

(١٨) البحر المحيط ، ج٢ ، ص/ ٥٠٦ .

(١٩) الكشّاف ، ج٤ ، ص/ ٦٥٦ .

(٢٠)صحيح البخاري ، الإمام أبو عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، دار الكتاب العربي ، مصر ، (د. ت) ، ج١ ، ص/ ١٢ .

(٢١) دقائق العربية ، أمين آل ناصر الدين ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص/ ٣٤

(٢٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، (كفر) .

(٢٣) انظر معاني الأبنية في العربية ، ص/ ١٤٥-١٥١ .

(٢٤) المصدر نفسه ، صم ١٥١ .

(٢٥) انظر معاني الأبنية في العربية ، ص / ١٥٢- ١٥٩ .

(٢٦) نتائج الفكر في النحو ، أبو القاسم السهيلي ، تحقيق : محمد إبراهيم البنا ، منشورات جامعة قار يونس ، ١٩٧٨ ، ص/ ٢٧٤ ، ويُنظر بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د . ت) ، ج١ ، ص/ ٦٥-٦٦ . وجاء في البرهان للزركشي قوله : " إنّ السجود يُطلق على وضع الجبهة بالأرض وعلى الخشوع ، فلو قال السُّجّد لم يتناول إلاّ المعنى الظاهر ، ومنه قوله تعالى : " تراهم رُكّعا سُجّدا " وهو من رؤية العين ، ورؤية العين بالظاهر فقصد بذلك الرمز إلى السجود المعنوي والصوري بخلاف الركوع ، فإنّه ظاهر في إعمال الظاهر التي يشترط فيها البيت كما في الطواف والقيام والتقدّم دون إعمال القلب " ينظر البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٨ ، ج٣ ، ص/ ٢٥٠-٢٥١ .

(٢٧) انظر معاني الأبنية في العربية ، ص/ ١٥٣-١٥٤ .

(٢٨) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، (عين) .

(٢٩) انظر من بديع لغة القرآن ، د. إبراهيم السامرائي ، دار الفرقان ، عمّان ، ١٩٨٤ ، ص/ ٢٢٩ .

(٣٠) الكشّاف ، ج٣ ، ص/ ٥٤٤ ، وج٤ ، ص/ ٤٤١ .

(٣١) الكشّاف ، ج٢ ،ص/٥٧٢ ، ج٣ ، ص/ ٣٩١ .

(٣٢) انظر معاني الأبنية في العربية ، ص/ ١٣٢ .

(٣٣) انظر معاني الأبنية في العربية ، ص/ ١٦٧ – ١٦٨ .

(٣٤) انظر الكشّاف ، ج٢ ، ص/ ٣٠١ .

(٣٥) معاني الأبنية في العربية ، ص/ ١٦٨ .

(٣٦) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦ ، (نفس) .

(٣٧) انظر معاني الأبنية في العربية ، ص/١٦٩ .

(٣٨) انظر الكشّاف ، ج٣ ، ص/ ٥٦٨ .

(٣٩) معاني الأبنية في العربية ، ص/ ١٦٩ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص / ١٥٨- ١٥٩ .

(٤١) التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي ، صححه وعلّق عليه : أحمد شوقي الأمين واحمد حبيب قصير ، المطبعة العلمية ، النجف الأشرف ، ١٩٦٣، ج٩، ص/ ١٧٤ .

(٤٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،ط٢ ، ١٩٩٩ ، ج١٦ ، ص/ ٤٣-٤٤ . وينظر جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري ، دار الكتب العلمية ، ج١١ ، ص/ ١٦٥ .

(٤٣) انظر معاني البنية في العربية ، ص/ ١٥٩ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ص/ ١٥٨ .

(٤٥)معاني الأبنية في العربية ، ص / ١٥٨ .

(٤٦) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، (عمى) .

(٤٧) انظر الكشّاف ، ج٣ ، ص / ٢٩٥ .

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٣- إعراب القرآن ، أبو جعفر النحّاس ، تحقيق : د. زهير غازي زاهد ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٨-١٩٨٠ .

٤- البحر المحيط ، أبو حيّان النحوي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٥- بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزيّة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٦- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٨ .

٧- التبيان في تفسير القرآن ، الطوسي ، صححه وعلّق عليه : أحمد شوقي الأمين وأحمد حبيب قصير ، المطبعة العلمية ، النجف الأشرف ، ١٩٦٣ .

٨- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ، د. عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار، عمّان ، ١٩٨٥ .

٩- جامع البيان في تفسير القرآن ، الطبري ، دار الكتب العلمية ،

١٠- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٩ .

١١- حجّة القراءات ، أبو زرعة ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

١٢- دراسات في علم اللغة ، د. كمال بشر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩ .

١٣- دقائق العربية ، أمين آل ناصر الدين ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٦٨ .

١٤- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ابن فارس ، تحقيق : مصطفى الشويمي ، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣ .

١٥- صحيح البخاري ، البخاري ، دار الكتاب العربي ، مصر ، (د . ت) .

١٦- الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،الإمام محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (د . ت) .

١٧- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ابن جنّي ، تحقيق : علي النجدي ناصف وعبد الفتّاح شلبي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، (د . ت) .

١٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، تحقيق : محمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي وأبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، ١٩٨٦ .

١٩- معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل السامرائي ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨١ .

٢٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦ .

٢١- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، محمد بن عمر الرازي ، مطبعة بولاق، القاهرة ، ١٢٨٩هـ .

٢٢- من بديع لغة القرآن ، د. إبراهيم السامرائي ، دار الفرقان ، عمّان ، ١٩٨٤ .

٢٣- نتائج الفكر في النحو ، ابو القاس السهيلي ، تحقيق : د. محمد إبراهيم البنا ، منشورات جامعة قار يونس ، ١٩٧٨ .